الملك توران شاه الأيوبي وموقفه من الغزو الصليبي على مصر ٦٤٨هـ/١٢٥٠م

د. سلام حسن طه(*)

ظهرت العديد من الدراسات التي تناولت الحملات الصليبية على العالم العربي الإسلامي، فمنها من ركز على دولة معينة، ومنها ما ركز على حملة معينة، آلا إننا سنعمد إلى دراسة موقف الملك توران شاه من الحملة الصليبية السابعة على مصر، والذي تمتع بدور كبير ومتميز في مواجهة الصليبيين الذين قادوا عدة حملات لاحتلال أجزاء مهمة من العالم الإسلامي، وقد جاء دور الملك المعظم توران شاه في تلك الحملة من رد الصليبيين على أعقابهم.

ركز البحث في خطوطه العامة على محورين أساسيين هما، حياة الملك المعظم توران شاه ودور شجرة الدر في توليه السلطة بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، كما تناول المحور الثاني الحملة الصليبية السابعة ومعركة المنصورة وما تبعها من أحداث وصولاً إلى مقتل توران شاه من قبل المماليك.

ولد الملك المعظم غياث الدين توران شاه(**)، في رجب عام ٥٦٩ هـ / فبراير ١١٧٤م قبل وفاة العاضد أخر الخلفاء الفاطميين بعامين فبعد موت العاضد

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة صلاح الدين.

(**) هو الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي بن مروان، وكان الملك المعظم هو آخر ملوك بني أيوب في مصر.

اصبح صلاح الدين الأيوبي صاحب الكلمة في مصر[١]، وكان للسلطان الصالح نجم الدين ثلاث أبناء من زوجة له غير شجرة الدر تعرف ببنت العالمة، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين محمد وقد مات وهو في السجن عند الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بدمشق وأوسطهم الملك المعظم توران شاه وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد وفاة أبيه نجم الدين، وأصغرهم الملك الظاهر وقد مات في حياة أبيه أيضا، كما انجب الصالح نجم الدين إبناً رابعاً من زوجته الثانية شجرة الدر التي كانت مملوكة له ثم اعتقها وتزوجها فأنجبت له ولد سماه خليل مات هو الأخر في حياة أبيه صغيراً.

في هذه الأثناء كانت استعدادات الصليبيين للهجوم على مصر مستمرة، ففي منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي قاد ملك فرنسا لويس التاسع الهجوم على مصر[٢]. وبصحبته جيش ضخم يملأه الغرور والزهو والخيلاء وخيل له انه سيجد البلاد لقمة سهلة إذ لم يخطر بباله ما تخبئه الأقدار له ولجيشه، ومما ساعد المسلمين على التهيوء معنويا لتلك الحملة هو وصول أخبارها للمسلمين عن طريق الإمبراطور فردريك الثاني- الصديق الحميم للسلطان الكامل- والذي لم يكن راغباً بحرب المسلمين، وغير قادر على معارضة حملة لويس جهراً لذلك أرسل إلى الصالح أيوب قبل موته سفارة من عنده متخفية بزي التجار المسلمين عرفت المسلمين بأهداف الصليبيين في حملتهم الجديدة، ومكنتهم من اخذ الاحتياطات لها[٣].

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (توران شاه)، المجلد الخامس، ص ٥٥٩-٥٦٠.

(٢) جوزيف نسيم يوسف، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، مؤسسة المطبعات الحديثة، ص ٣.

(٣) جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (القاهرة: ١٩٧٢): ٦/ ٣٦٦.

خرجت الحملة بحراً من فرنسا عام ١٢٤٨م- بعد ثلاث سنوات من الإعداد- من ميناء مرسيليا وبعدد كبير من السفن[٤]، وكان بصحبة لويس التاسع زوجته مرجريت وشقيقيه شارل و روبرت، ولوبرت شقيقه الآخر فقد بقي في فرنسا لحشد جموع أخرى لكي تلحق بالمقاتلين المتجهين إلي مصر[٥]، وقد وصلت هذه الحملة أمام مدينة دمياط سنة ١٢٤٩م حيث يتحصن جيش المسلمين إذا كان يفصل بين الجيشين الماء، ولما لاحظ الأمير فخر الدين جموع الإفرنج أرسل ثلاث رسائل إلى الملك الصالح نجم الدين عن طريق الحمام الزاجل وكان الصالح نجم الدين معسكرا عند اشموم ليخبره منبئاً نزول الإفرنج على جزيرة دمياط[٦]

عندما لم يتلق الأمير فخر الدين جواباً على رسائله الثلاثة، رجح موت السلطان لأنه كان يعلم بمرضه مسبقا، وبسبب طمعه في الحكم خشي أن يختار المماليك سلطانا غيره فبادر بالانسحاب من جيزة دمياط هو وقواته، وكان انسحابه أشبه بالفرار وعبروا جسرا كان يصل بين جيزة دمياط ومدينة دمياط، وحينما رأى أهالي دمياط أن الأمير تركهم قاموا بإشعال النار في سوق المدينة وفروا منها وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة، وحينما شعر الصليبيون بخلو المدينة من المدافعين عنها ومن الأهالي دخلوها دون أي مقاومة عام ١٢٤٩م[٧]، وقد ألقى المؤخرون المسلمون مسؤولية دخول الإفرنج دمياط على عاتق الأمير فخر الدين واتهموه بالخيانة والخوف وسوء التصرف[٨]، فذكر المؤرخ المعاصر ابن واصل

(٤) يوسف، المرجع السابق، ص٥-٦.

(٥) يوسف، العدوان الصليبي على مصر (القاهرة: ١٩٨٤)، ص ١٠٢.

(٦) غنيم سمث، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة(بيروت: ١٩٨٨)، ص ١٢.

(٧) سمث، المرجع السابق، ص ١٣.

(٨) يوسف، العدوان، ص ١٠٤.

ذلك بقوله:" وكان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر، فان فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط... ولكن أهل دمياط كانوا مذعورين. لأنهم لما رأوا هرب العساكر وعلموا مرض السلطان. خافوا أن يستمر عليهم الحصار مدة طويلة فيهلكوا جوعا. كما هلك أهل دمياط في المرة الأولى"[٩].

بعد النصر الذي أحرزه الملك لويس في دمياط بدت عليه علامات الغرور والعظمة والاستهانة بالمسلمين مما دفعه ذلك لإرسال كتاب إلي السلطان الصالح أيوب في مصر يستهين به ويدعوه للاستسلام ويذكره بقوة الصليبيين وتدميرهم للمسلمين في الأندلس ومما جاء في ذلك الكتاب: " نحن نسوقهم سوق البقر (أي للمسلمين في الأندلس) ونقتل منهم الرجال ونرمل منهم النساء ونستأسر البنات والصبيان... فلو حلفت لي بكل الإيمان... ما ردني عن الوصول إليك... "[١٠].

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يزحفون باتجاه القاهرة كان الملك الصالح نجم الدين أيوب على فراش الموت، إذ توفي في شعبان سنة ٦٤٧هـ/ نوفمبر ٢٤٩م[١١]، وفي هذه الظروف الصعبة برز دور شجرة الدر من خلال إخفاء موته إلا عن بعض خاصة القواد الذين أخذت تدبر الأمر معهم حفاظا على معنويات المعسكر الإسلامي من الاضطراب والفوضى[١٢]، وكانت مدة حكمه للديار المصرية تسع سنين وثمانية اشهر، ولم يعلم موت الصالح سوى شجرة الدر

---

(٩) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال (القاهرة: ١٩٥٧) : ١/ ٣٥٦.

(١٠) تقي الدين احمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة (القاهرة: ١٩٣٩): ١/ ٣٣٤.

(١١) شمس الدين أبي المظفر سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: ٨/ ٧٧٥.

(١٢) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في الشرق والغرب، دار الغرب الإسلامية، ص ١٦٦.

والطواشي جمال الدين محمد والأمير فخر الدين بن الشيخ، فكتموا ذلك خوفا من الإفرنج وجمعت شجرة الدُر الأمراء بعد وفاة الصالح نجم الدين وقالت لهم:" ان السلطان يأمركم ان تحلفوا له ثم من بعده لولده المعظم توران شاه المقيم في حصن كيفا"[١٣]، إذ كان توران شاه نائباً عن أبيه في حصن كيفا الواقع بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر على نهر دجلة[١٤].

كان على شجرة الدر ومن معها التحرك بسرعة لاستدراك الأمر، فأرسلوا الفارس (اقطاي) كبير المماليك البحرية وقتئذ لاستحضار الملك المعظم توران شاه على عجل من حصن كيفا، وفي نفس الوقت سارت الاستعدادات للدفاع عن المملكة سيراً طبيعياً في الوقت الذي كانت تخرج الكتب والمراسيم بتوقيع الملك المتوفى وكأنه حي على قيد الحياة[١٥] لان إعلان موته سوف يخلق نوع من الفوضى وتشتتا لقوى الجند وربما صراعات بين الأمراء على الحكم، وقد وضعت شجرة الدر جثة السلطان في التابوت إذ تم نقله في سفينة من المنصورة إلى القاهرة حيث تم دفنه في القلعة القائمة في جزيرة الروضة إذ توجد تكنات المماليك البحرية[١٦].

وبعد ان دخل الصليبيون دمياط أسرعوا إلى تنصيرها وتحويل مسجدها كنيسة وتعيين بطرقا لها وقد كان ذلك بمثابة مصيبة لم يحدث مثلها في تاريخهم الطويل[١٧]، وقد عاقب الصالح أيوب المتهاونين في الدفاع عن المدينة عقابا قاسيا،

---

(١٣) عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية: ٢/ ١٧٩-١٨٠.

(١٤) يوسف، هزيمة لويس، ص ٣١.

(١٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة: ١٩٧١): ٢/ ١٠٦٥.

(١٦) سمث، الدولة الأيوبية، ص ١١٧.

(١٧) أبن تغرى بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٣٠.

فقد أمرّ بشنق كثيرين في حين وبخ البعض الآخر منهم[١٨]، وبعد ان تمت السيطرة على دمياط حاول لويس استكمال السيطرة على مصر، فقد غادر الإفرنج دمياط متجهين نحو القاهرة إلا أن فشلهم في اختيار الطريق الأمثل حال دون ذلك، لاختيارهم طريق كان قد سلكه أسلافهم من قبل، ولهذا غيروا طريقهم بعد وصول الإمدادات في أواخر أكتوبر عام ١٢٤٩م بقيادة (دي بواتيه)، فعُقد مجلس للحرب لتقرير الخطوة اللاحقة[١٩]، وهنا رأى بعض الزعماء الصليبيين أن يتجهوا إلى الإسكندرية للسيطرة على السواحل المصرية من ناحية، وعزل مصر عن الاتصال بالعالم الخارجي وحرمانها من نشاط التجاري من ناحية أخرى[٢٠]، لاسيما وان تفوق الأسطول الصليبي يتيح فرصة طيبة للصليبيين لإتمام هذه الخطوة بنجاح، لكن البعض الآخر فضل الزحف إلى القاهرة لطعن مصر في قلبها وقد أنتصر الرأي الأخير[٢١].

لم يتجه الصليبيون إلى القاهرة مباشرة بعد احتلالهم دمياط، فقد بقي لويس التاسع نحو ستة أشهر ينتظر بقية السفن الصليبية ليزداد قوة، مما مكن المصريين خلال تلك الفترة للاستعداد وجمع الجيوش لملاقاة الصليبيين[٢٢]، إذ برز دور الملك المعظم توران شاه في قيادة المعركة بعد توليه الحكم خلفا لأبيه[٢٣]، بعد وفات الملك الصالح نجم الدين اصبح توران شاه يخطب له على المنابر ونقش اسمه على

(١٨) أنظر: العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧ نقلاً عن الحرتة الصليبية ٢ / ١٠٦٣.

(١٩) عاشور، المرجع السابق: ٢/ ١٠٤.

(٢٠) عاشور،ن المرجع نفسه: ٢/ ١٠٤.

(٢١) عاشور، نفسه: ٢ / ١٠٥.

(٢٢) المطوي، الحروب الصليبية، ص ١١٦.

(٢٣) زين الدين عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية(النجف: ١٩٦٩) ; ٢/ ٢٦٠.

الدراهم والدنانير[٢٤]، ولكن على الرغم من كل هذا التكتم فقد تسرب خبر موت الملك لا إلى المصريين فحسب بل إلى الصليبيين أيضا، وعندئذ قرر لويس التاسع أن يسرع في الهجوم على مصر ويستفيد من الظروف السيئة التي تعاني منها البلاد ويتمكن من إنزال ضربة للمسلمين قبل وصول المعظم توران شاه[٢٥].

سار الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا إلى دمشق مع خمسين فارسا من أصحابه، على طريق السماوة في البر فنزل القيصر في دهليز ضربة له الأمير جمال الدين موسى بن يعمور نائب دمشق، ودخل الملك المعظم توران شاه ونزل بقلعتها، فكان يوم نزول الملك المعظم في قلعة دمشق يوم وجود الأمير جمال الدين الذي قام بخدمته، فكان يوم نزول الملك المعظم في قلعة دمشق يوم وجود الأمير جمال الدين الذي قام بخدمته، وقد أدى الأمراء أمامه يمين الولاء، والذي بدوره قام بأنفاق ما في القلعة من أموال والتي قدرت بثلاثمائة ألف دينار واستدعى من الكرك مال آخر فأنفقه واخرج من كان في حبس أبيه بدمشق[٢٦].

وسار السلطان من دمشق إلى مصر بعد ما خلع على الأمير جمال الدين بن صاعد الفائزي الفائز على نيابة السلطنة بدمشق، وقدم معه القاضي الأسعد شرف الدين بن صاعد الفائزي، وسار السلطان في ذي القعدة إلى قلعة الكرك ليحتاط على خزائنها فأنهى اشتغاله بها.

---

(٢٤) سمث، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢٥) عاشور، المرجع السابق: ٢/ ١٠٦٥.

(٢٦) المقريزي، السلوك، : ١/ ٣٥١- ٣٥٢.

وعندما توافرت الأخبار في القاهرة بقدوم السلطان خرج قاضي القضاة بدر الدين السنجاري فلقيه وقدم معه، وبعد وصول السلطان توران شاه إلى مصر نزل في قصر أبيه ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب، فلم يتغير عليها شيء إلى أن استقر الملك المعظم توران شاه بالصالحية فتسلم السلطان المعظم مملكة أبيه في مصر، ثم رحل من الصالحية في طريقه إلى المنصورة، والتي تلقاه فيها الأمراء المماليك حال وصوله، وقد أمر فخر الدين بان ينفق الأموال ويطلق المساجين(٢٧).

لقد استغل الصليبيون نبأ وفاة السلطان أيوب وزحفوا إلى القاهرة عن طريق الدلتا وساروا على الضفة الشرقية لفرع دمياط في المنطقة التي تسمى (جزيرة دمياط) لإحاطتها بالماء من الشمال الشرقي والغرب ومن الجنوب الشرقي ومعنى هذا أن بحر اشموم كان يعترض طريق الصليبيين للوصول إلى المنصورة- مركز تجمع القوات الإسلامية- ومن ثم للزحف على القاهرة، وهذا الأمر أعطى للقوات الإسلامية مركزاً جيداً في ضرب الصليبيين وعرقلة مسيرهم، وقد نجحوا فعلاً في مسعاهم وكبدوا الصليبيين خسائر فادحة(٢٨).

كان طريق الصليبيين إلى القاهرة خالياً من المقاومة نوعا ما، إذ وصلوا إلى فارسكور في الثاني من ديسمبر ١٢٤٩م دون ان يواجهوا مقاومة تذكر من جانب المسلمين، وواصل الصليبيون بحثهم مسرعين تارة ومتباطئين تارة أخرى، وقد حدث في تلك الأثناء اشتباك عنيف بينهما انتهى لصالح الصليبيين الذين واصلو زحفهم حتى وصلوا إلى (البرافون) ومنها وقفوا عند منطقة شمال بحر اشموم،

(٢٧) المقريزي، المصدر نفسه: ١ / ٣٥٣.

(٢٨) ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨ / ٧٧٥.

حيث استقروا فيها وأقاموا معسكرهم هناك وحصنوه عن طريق بناء المتاريس والخنادق واستعدوا لمنازلة المسلمين[٢٩].

وإذا كان المسلمون قد شنوا هجمات على الصليبيين إلى ذلك الموقع قبل وأثناء زحفهم فإن الوصول إلى هذا المكان الحصين حيث مرور المياه من جهتيه جعلهم بعيدين عن منال المسلمين، ولاسيما أن لويس قد حفر خلف جيشه خندقا وجعل فيه الماء ليمنع التفاف جيش المسلمين حوله[٣٠]، وفي الوقت نفسه رابط الأسطول الصليبي ليمنع أي هجوم يأتي من جانب النهر، وكان المسلمون " يتحيلون في خططهم بكل حيلة" [٣١].

لقد روى المؤرخون المسلمون تفاصيل معركة المنصورة بدقة متناهية، فقد ذكر ابن واصل قصة اسر أحد الجنود الأعداء للاستعلام منه عن أعداد وأسلحة العدو، إذ يقول: "أن أحد المسلمين قام بوضع بطيخة خضراء وجعلها على رأسه وغطس في الماء حتى حاذى الإفرنج فظنها بعضهم بطيخة سائبة في الماء، ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الرجل وأتى به أسيرا إلى معسكر المسلمين"، واستخدم المسلمون في المعركة كل ما لديهم من إمكانيات لتحقيق النصر، فكان استخدام القذائف ولاسيما النار الإغريقية سببا في تحقيق النصر، إذ أوقع استخدامها خسائر فادحة في صفوف الصليبيين، فتذكر المصادر ان المسلمين قتلوا من الإفرنج (٤٠) فارسا وفتكوا بعدد من خيلهم، كما اسروا (٦٧) مقاتلا اقتيدوا إلى القاهرة[٣٢].

---

(٢٩) العيني، المصدر السابق، نقلا عن عاشور:: ٢ / ١٠٦٨.

(٣٠) سمث، المرجع السابق، ص ١١٨.

(٣١) عاشور، المرجع السابق: ٢ / ١٠٦٨.

(٣٢) ابن واصل، المصدر السابق: ٢ / ٣٦٥.

بعد أن شعر الصليبيون انهم بحاجة إلى عبور النهر، أمر لويس جنده ببناء جسر لكي تتمكن القوات الصليبية من العبور، إلا أن استخدام المسلمين للنار الإغريقية حال دون ذلك[٣٣]، وعندما ذهبت محاولات الصليبيين في عبور النهر أدراج الرياح استدعى الملك قادته للتداول في الأمر[٣٤]، وبينما هم مجتمعون أتاهم جماعة يرجح انهم من الأعراب ودلوهم على مخاضة بحر اشموم يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم بعيداً عن أعين الرقباء وذلك لقاء اجر معلوم من المال[٣٥]، وكانت هذه المخاضة تعرف بمخاضة سلمون، وقد توجه الجيش الصليبي إلى المخاضة في الرابع من ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ يتقدمهم الدليل وكانت عملية العبور شاقة لان المخاضة كانت اكثر عمقا واشد خطراً مما توقع الصليبيون، مما أضطر جيادهم إلى الخوض سباحة، كما لاقوا صعوبة في العبور إلى الضفة الجنوبية لارتفاع الشاطئ وكثرة أوحاله، فقد غرق عدد كبير منهم عند محاولتهم العبور[٣٦].

استطاع الصليبيون عبور اشموم وكانت أول فرقة من الفرسان تصل إلى معسكر المسلمين في ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ[٣٧]، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ بالمنصورة فركب مسرعاً، لخوض المعركة الفاصلة وجمع رجاله لرد العدو، لكنه لم يلبث ان وقع في كمين نصبه له الصليبيون وحملوا عليه ففر من كان معه

(٣٣) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق: السيد الباز العريني، دار الثقافة (بيروت: د/ت) ص٤٧٥.

(٣٤) يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط (١٢٥٠- ١٢٥٤م)، ط٢ (بيروت: ١٩٥٩)، ص٤٨.

(٣٥) ابن واصل، المصدر السابق: ٣/ ٣٦١.

(٣٦) يوسف، العدوان الصليبي، ص ١٦٢- ١٦٣.

(٣٧) ابن الوردي، المصدر السابق: ٢/ ٢٦١.

وتركوه وهو يدافع عن نفسه حتى طعن برمح فقتله، وتفرق الجند من حوله وكادت أن تلحق بهم هزيمة نكراء، وباستشهاد فخر الدين في ساحة المعركة سقطت التهمة التي ألصقت به في دمياط من تسببه في خسارة المسلمين[٣٨].

بعد هذا التقدم الذي حققه الصليبيون تقدموا إلى (جديلة) وكانوا ألفا وأربعمائة فارس وفي مقدمتهم أخو الملك لويس، فقد تمكنت فرقة من فرسانهم الدخول إلى شوارع المنصورة، بقيادة (روبرث ارتوا) والذي دخل المدينة دون أذن مسبق من قادته ودون ان يقدر عواقب الأمور[٣٩].

لقد وجد المسلمون قائداً جديداً في شخص بيبرس البندقداري الذي تزعم المماليك الصالحية في معركة المنصورة ضد الصليبيين، كما انضم إليهم قائدهم الأعلى الملك المعظم توران شاه ليشتد القتال بين المسلمين والصليبيين براً وبحراً، إذ استطاع المماليك البحرية من التصدي للصليبيين وتمكنوا منهم وزاحوهم عن باب القصر وأوقعوا بهم السيوف حتى قتل من أعيانهم وشجعانهم الكثير، فانهزموا باتجاه الجسر ليعبروا منه، وكانت المعركة بين أزقة المنصورة حتى حال الليل بين الفريقين لينهزم العدو إلى جديلة منزلتهم[٤٠]، وكان على رأس القتلى (روبرث ارتوا) نفسه فضلاً عن عدد كبير من أمراء الصليبيين، أما أمراء الداوية فقد قتل منهم (٢٨٥) فارساً، وهكذا كانت المنصورة" مقبرة الجيش الصليبي"

(٣٨) يوسف، العدوان، ص ١٥٦.

(٣٩) المطوي، المرجع السابق، ص ١٢٠، يوسف، لويس التاسع، ص ٥٠.

(٤٠) أبو الفداء، المصدر السابق: ٣ / ١٨٠، حسين احمد أمين، الحروب الصليبية في كتاب المؤرخين المعاصرين لها (القاهرة: د / ت)، ص ٣١٤.

على حد قول أحد المؤرخين الأوربيين و"أول ابتداء النصر على الصليبيين الإفرنج" على حد قول المقريزي[٤١].

، لقد استخدم المسلمون في المعركة الشجاعة والحيلة بعد الاتكال على الله، فقد أمر الملك المعظم توران شاه جنده بصناعة القوارب وحملها براً على الجمال إلى بحيرة المحلة وطرحوها هناك وشحنوها بالمقاتلين، وكانت تلك الأيام يزيد فيها نهر النيل، فلما جاءت مراكب الإفرنج إلى البحيرة تفاجئت بالمسلمين، إذ خرجت عليها المراكب الإسلامية بغتة وقاتلتها وأسرت منها الكثير- تقريباً (٥٢) مركباً-، كما أسرت وقتلت قرابة ألف إفرنجي مع ما لديهم من مؤن وسلاح وحملت الأسرى إلى معسكر المسلمين فانقطع المدد من دمياط عن الإفرنج، فقد كانت الميرة تصل إلى الصليبيين عن طريق البحر، فوقع الغلاء عندهم وصاروا محاصرين لايطيقون المقام ولايقدرون على الذهاب[٤٢].

، توالت انتصارات المسلمين على الصليبيين براً وبحراً، فقد حصر ما تبقى من الأسطول الصليبي في المثلث الواقع بين فرع النيل وبحيرة المنزلة والبحر الصغير (النهر الصغير) وقد جرت بين الأسطول المصري والصليبي معارك كبيرة انتهت بظفر الأسطول المصري والقضاء على ثلاثين سفينة صليبية، واشتد الضغط على الصليبيين فقل زادهم وانقطع مددهم وفشت فيهم الأمراض ونالهم الجوع، كما ارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً، حتى انهم باتوا يأكلون لحوم الجياد والحمير والبغال وغيرها من الحيوانات التي كانت معهم[٤٣].

---

(٤١) المقريزي، المصدر السابق: ١/ ٣٥٣- ٣٥٤.

(٤٢) المقريزي، المصدر نفسه.

(٤٣) ابن واصل، المصدر السابق: ٣٦٨/٣، المطوي، المرجع السابق، ١٢٠.

لقد فت ذلك كلُه في عضد الصليبيين فطلب الملك الفرنسي فتح باب المفوضات مع السلطان توران شاه، وأرسل يطلب الصلح وهو يعلم الشدائد التي يقاسيها الصليبيون، وقد مثل الملك المعظم توران شاه في المفاوضات الأمير زين الدين أمير جاندار وقاضي القضاة بدر الدين الشجاري وعن الصليبيين الفارس جوفرد دي سامبين وقد كان عامل الغرور لدى الصليبيين لا يزال قائما رغم الخسائر الفادحة التي تلقوها ورغم الموقف الصعب الذي هم فيه[٤٤]، فقد اشترط في نظير تسليمه دمياط للمصريين ومغادرته لمصر ان يتنازل لهم توران شاه عن البيت المقدس وبعض المدن الساحلية في فلسطين[٤٥]، وقد قوبلت عروض الملك الفرنسي بالرفض التام من جانب المسلمين الذين كانوا في موقف يسمح لهم بإملاء إرادتهم على الصليبيين، وهكذا انقطعت المفاوضات دون الوصول إلى أية نتيجة[٤٦].

تلك كانت حال الصليبيين في الوقت الذي خسروا قوتهم فقد نال منهم الجوع والمرض الذي كان يفتك بهم فتكا، فضلا عن النقص المتزايد في أعدادهم، وكل ذلك كلف الاضطراب النفسي في صفوفهم وافقدهم الروح المعنوية وهي سلاح المحارب مما سبب تثبيطا لهممهم، وهذا الأمر جعلهم يتصرفون تصرفات هوجاء، فقد احرقوا ما عندهم من خشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط[٤٧].

لقد اصبح أمام الصليبيين أحد أمرين، فاما ان يظلوا في معسكراتهم شمال وجنوب بحر اشموم- وفي هذا هلاكهم بعد ان قلت المؤن وتفشت الأمراض بينهم،

(٤٤) أمين، المرجع السابق، ص ٣١٦.

(٤٥) يوسف، العدوان الصليبي، ص ١٩٤.

(٤٦) المقريزي، المصدر السابق: ١/ ٣٥٤.

(٤٧) أمين، المرجع السابق، ص ٣١٦.

بما فيهم الملك لويس نفسه الذي أصيب بالوباء الذي تفشى بالجيش، إذ كان يغمى عليه في اليوم الواحد عدة مرات- واما ان يعودوا أدراجهم إلى مدينة دمياط للتحصن بها[٤٨].

لقد دفع هذا الأمر لويس التاسع إلى عقد مجلسا لكبار قادته للتداول في الأمر، وبدا كونت بواتيه الحديث قائلا: " لقد أطبق المصريون علينا من كل جانب بعد ان افلحوا في استدراجنا إلى البلاد ليسهل عليهم الفتك بنا"، وأضاف جان دي جوانفيك:" ها نحن نجني يا مولاي ثمار تهورنا في بلاد غريبة عنا فالبحر أمامنا وجيش المصريين من خلفنا والهلاك مصيرنا وخير لنا ان نتراجع من حيث أتينا بمن تبقى من رجالنا بدلا من ان نفنى جميعا على ضفاف النيل وتحت شمسه المحرقة"[٤٩]، وكان لويس يستمع إلى ما يدور حوله دون ان يعلق بكلمة، وفي آخر الأمر أنهى الاجتماع معلنا قراره بالانسحاب إلى مدينة دمياط[٥٠].

بدا الصليبيون بالانسحاب نحو دمياط وانحدرت مراكبهم في الثالث من محرم سنة ٦٤٨هـ/ السابع من أبريل سنة ١٢٥٠م في البحر، إذ وصلوا بأسرهم من منزلتهم يريدون دمياط حاملين معهم جرحاهم ومكبدين بخسارة ثقيلة[٥١]، والواقع ان الحملة لم تكن انسحابا بالمعنى المعروف في الحرب، وانما كانت عملية هروب إلى دمياط كما سماها ابن واصل[٥٢]، وكان الصليبيون قد أقاموا جسرا

(٤٨) سمث، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٤٩) يوسف، هزيمة الصليبيين، ص ٧٤.

(٥٠) محمود ياسين احمد التكريتي، الايوبيون شمال الشام والجزيرة (٥٦٤- ٦٤٨/ ١١٦٨-١٢٥٠م) (بغداد: ١٩٨١) ص ٢٨١.

(٥١) عاشور، المرجع السابق: ٢/ ١٠٧٣.

(٥٢) ابن واصل، المصدر السابق: ٣/ ٣٦٤.

على بحر اشموم" فسهوا عن قطعة" وعندئذ عبر خلفهم المسلمين" وركبوا أقفيتهم" – أي ساروا في أعقابهم يهاجمونهم من كل ناحية - ، وقد أحاط المسلمون بهم وبذلوا فيهم سيوفهم واستولوا عليهم قتلا وأسرا، إذ كان عدد القتلى في الجيش الصليبي عشرة آلاف على الأقل وقدرها البعض اكثر من ذلك- نحو ثلاثين ألفا- واسر من رجالهم ما يناهز مائة ألف إنسان، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة، واستشهد من المسلمين مائة رجل[٥٣]. ورغم ما في هذه الأرقام من مبالغة واضحة إلا انها دليل واضح على تفوق المسلمين وانتصارهم.

لقد أبلت الطائفة البحرية لا سيما بيبرس البندقداري في هذه المعركة بلاءا حسنا وبان لهم اثر جميل من الانتصار على العدو وتكبيده خسائر فادحة، إذ طلب لويس وعدد من أكابر قومه الأمان فأمنهم الطواشي جمال الدين ونزلوا على امانه واخذوا إلى المنصورة فقُيّد الملك لويس بقيد من حديد، وفي محاولة فاشلة من أحد كتاب الغرب لتشويه صورة الإسلام في تعامله مع الأسرى يتحدث رنسيمان[٥٤] عن قيام المسلمين وبأمر من توران شاه بقتل بعض الأسرى بسبب مرضهم وضعف مسيرهم. وهو أمر منافي لتعاليم الإسلام ومخالف للحقيقة إذ تشير الدلائل إلى ان السلطان توران شاه اكرم الملك لويس وهو في الأسر وأقام عنده من يقوم بخدمته كما رتب له كل ما يحتاج له من مأكل ومشرب وكان الملك لويس وأخوه محتجزا في دارٍ القاضي في المنصورة وأجرى عليه راتبا في كل يوم[٥٥].

---

(٥٣) أمين، المرجع السابق: ص ٣٠٧.

(٥٤) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٤٦٦.

(٥٥) المقريزي، المصدر السابق: ١ / ٣٥٦.

بما فيهم الملك لويس نفسه الذي أصيب بالوباء الذي تفشى بالجيش، إذ كان يغمى عليه في اليوم الواحد عدة مرات- واما ان يعودوا أدراجهم إلى مدينة دمياط للتحصن بها[٤٨].

لقد دفع هذا الأمر لويس التاسع إلى عقد مجلسا لكبار قادته للتداول في الأمر، وبدا كونت بواتيه الحديث قائلا: " لقد أطبق المصريون علينا من كل جانب بعد ان افلحوا في استدراجنا إلى البلاد ليسهل عليهم الفتك بنا"، وأضاف جان دي جوانفيك:" ها نحن نجني يا مولاي ثمار تهورنا في بلاد غريبة عنا فالبحر أمامنا وجيش المصريين من خلفنا والهلاك مصيرنا وخير لنا ان نتراجع من حيث أتينا بمن تبقى من رجالنا بدلا من ان نفنى جميعا على ضفاف النيل وتحت شمسه المحرقة"[٤٩]، وكان لويس يستمع إلى ما يدور حوله دون ان يعلق بكلمة، وفي آخر الأمر أنهى الاجتماع معلنا قراره بالانسحاب إلى مدينة دمياط[٥٠].

بدا الصليبيون بالانسحاب نحو دمياط وانحدرت مراكبهم في الثالث من محرم سنة ٦٤٨هـ/ السابع من أبريل سنة ١٢٥٠م في البحر، إذ وصلوا بأسرهم من منزلتهم يريدون دمياط حاملين معهم جرحاهم ومكبدين بخسارة ثقيلة[٥١]، والواقع ان الحملة لم تكن انسحابا بالمعنى المعروف في الحرب، وانما كانت عملية هروب إلى دمياط كما سماها ابن واصل[٥٢]، وكان الصليبيون قد أقاموا جسرا

(٤٨) سمث، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٤٩) يوسف، هزيمة الصليبيين، ص ٧٤.

(٥٠) محمود ياسين احمد التكريتي، الايوبيون شمال الشام والجزيرة (٥٦٤- ٦٤٨/ ١١٦٨-١٢٥٠م) (بغداد: ١٩٨١) ص ٢٨١.

(٥١) عاشور، المرجع السابق: ٢/ ١٠٧٣.

(٥٢) ابن واصل، المصدر السابق: ٣/ ٣٦٤.

على بحر اشموم" فسهوا عن قطعة" وعندئذ عبر خلفهم المسلمين" وركبوا أقفيتهم" – أي ساروا في أعقابهم يهاجمونهم من كل ناحية - ، وقد أحاط المسلمون بهم وبذلوا فيهم سيوفهم واستولوا عليهم قتلا وأسرا، إذ كان عدد القتلى في الجيش الصليبي عشرة آلاف على الأقل وقدرها البعض اكثر من ذلك- نحو ثلاثين ألفا- واسر من رجالهم ما يناهز مائة ألف إنسان، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة، واستشهد من المسلمين مائة رجل[٥٣]. ورغم ما في هذه الأرقام من مبالغة واضحة إلا انها دليل واضح على تفوق المسلمين وانتصارهم.

لقد أبلت الطائفة البحرية لا سيما بيبرس البندقداري في هذه المعركة بلاءا حسنا وبان لهم اثر جميل من الانتصار على العدو وتكبيده خسائر فادحة، إذ طلب لويس وعدد من أكابر قومه الأمان فأمنهم الطواشي جمال الدين ونزلوا على امانه واخذوا إلى المنصورة فقُيّد الملك لويس بقيد من حديد، وفي محاولة فاشلة من أحد كتاب الغرب لتشويه صورة الإسلام في تعامله مع الأسرى يتحدث رنسيمان[٥٤] عن قيام المسلمين وبأمر من توران شاه بقتل بعض الأسرى بسبب مرضهم وضعف مسيرهم. وهو أمر منافي لتعاليم الإسلام ومخالف للحقيقة إذ تشير الدلائل إلى ان السلطان توران شاه اكرم الملك لويس وهو في الأسر وأقام عنده من يقوم بخدمته كما رتب له كل ما يحتاج له من مأكل ومشرب وكان الملك لويس وأخوه محتجزا في دارٍ القاضي في المنصورة وأجرى عليه راتبا في كل يوم[٥٥].

---

(٥٣) أمين، المرجع السابق: ص ٣٠٧.

(٥٤) رنسيمان، المرجع السابق، ص ٤٦٦.

(٥٥) المقريزي، المصدر السابق: ١ / ٣٥٦.

كان نبأ اعتقال الملك لويس وخسارة جيشه ثقيلاً على زوجته ومن معها، فقد عقدت اجتماعا مع المقربين لها وطلبت من الإيطاليين مساعدتها على الرغم من معرفتها بجشعهم، إلا ان خوفها على زوجها لم يترك لها وسيلة أخرى وخاصة بعد وصول الرسول وتبليغها بما حدث، وكانت مرجريت ترغب بالبقاء في دمياط لكي تكون فرصة للمساومة في إطلاق سراح زوجها(٥٦).

في هذه الأثناء كان الملك لويس يسترجع وهو في سجنه ذكريات الماضي القريب مع أخويه وقد قيدت أيديهم وأرجلهم بالأغلال، ذكريات مريرة اخذ يستعيدها في مخيلته- ليست هذه هي الهزيمة الأولى التي تنزل بنا، لقد تلقى أجدادنا في حملة سابقة على أبواب هذه المدينة نفسها لطمات شديدة من أهلها وجيشها، لكننا لم نعتبر ولم نتعظ(٥٧).

لم تمض سوى بضعة أيام على وقوع الصليبيين في الأسر حتى طلب السلطان توران شاه فتح باب المفاوضات مع الملك الفرنسي، وقد أصر السلطان المعظم على ان يسلم لويس التاسع بعض المعاقل في الأراضي المقدسة، أو تلك التي تتبع جماعة الفرسان الداوية و الأسبتارية، لكن الملك لويس رفض هذه الطلبات مبينا انه ليس من حقه ان يتنازل للمصريين عن بلاد ليست ملكا له، ولهذا لم يتحقق ذلك المطلب رغم كل الضغوط التي مورست على الملك لويس التاسع، وكان يردد دائما انه طالما هو أسير لدى المسلمين فهم أحرار فيما يفعلونه فيه، وانه لا يستطيع تنفيذ هذا المطلب(٥٨).

---

(٥٦) يوسف، هزيمة لويس، ص ٨٠.

(٥٧) يوسف، المرجع نفسه، ص٨٥.

(٥٨) يوسف، العدوان الصليبي، ص٢٥٦.

وقد ظلت المفاوضات دائرة بين الطرفين إلى ان تنازل السلطان عن مطلبه،، واتفق الطرفان على ان يحدد مطالبه و أبرمت المعاهدة لمدة عشر سنوات وفق الشروط الآتية:

١. تسليم مدينة دمياط للمسلمين كفدية عن الملك لويس.
٢. يدفع الملك لويس مبلغا من المال قدره (٨٠٠) ألف فداء عن بقية الأسرى الصليبيين.
٣. إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين لديهم.
٤. ان يعمل المسيحيون على حفظ الأمن وإقرار السلام في جميع البلاد التي يحتلونها.
٥. ان يقوم السلطان على حماية وحراسة عتاد الصليبيين الموجود في دمياط، بعد رحيلهم عنها إلى ان تسنح الفرصة لنقلها إلى بلادهم.
٦. ان يمنح المرضى المسيحيين وغيرهم ممن يبقون في دمياط الأمان حتى يبيعون ما يملكون.

وقد اقسم الطرفان على احترام شروط هذه المعاهدة والمحافظة عليها وعدم الإخلال بها(٥٩).

بعد ان تحقق النصر للمسلمين واستطاعوا تحرير دمياط، بدأ الملك المعظم بأبعاد مماليك أبيه عن السلطة، فاخرج الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل من قلعة الجبل إلى الشوبك واعتقله بها، واخرج الملك السعيد فخر الدين من مصر إلى دمشق حيث اعتقله هناك، وبعث المعظم إلى شجرة الدر يتهددها ويطالب بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر، فخافت من كلامه هذا وراسلت المماليك حول

(٥٩) سمث، المرجع السابق، ص ١٢٥.

الموضوع منبهة إياهم حول موقفها من السلطان عند موت والده وتسليمها السلطة له، وبعد سماعهم لقولها انضموا لها ووقفوا ضده[٦٠]، ولما تغيرت قلوب العسكر من توران شاه خصوصا مماليك أبيه البحرية اتفقوا على قتله، فلما كان يوم ٣٠ محرم سنة ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م مد الملك المعظم توران شاه السماط في مجلسه وأكل معهم على ما جرى كعادته، وبعد ان فرغت الناس من الأكل وتفرقت الأمراء، قام المعظم من مجلسه فطلب الدخول إلى خيمته الصغيرة، فدخل عليه بيبرس البندقداري وكان أحد جمدارية أبيه فضرب الملك المعظم بسيف فجرح في كتفه ولم يمت، وعند ذلك بدأت المخاوف تزداد لدى المماليك من افتضاح أمرهم، وخاصة بعد ان سمعوا انه قال"والله لا إبقين منهم بقية" وقال بعضهم لبعض هاجموه وإلا أبادكم فدخلوا عليه فهرب إلى البرج فلحقوا به حتى قتلوه في ٣٠ محرم ٦٤٨هـ[٦١].

ولما قُتل المعظم اجتمع الأمراء المماليك البحرية واعيان أهل الثورة بالدهليز السلطاني، واتفقوا على إقامة شجرة الدر (أم خليل) زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب في مملكة مصر، وإن تكون العلامات السلطانية على التواقيع تبرز من قبلها وان يكون مقدم العسكر الأمير فخر الدين أيبك التركماني الصالحي أحد البحرية[٦٢]

(٦٠) المقريزي، المصدر السابق،: ١ /٣٥٨ .

(٦١) أبو الفداء، المصدر السابق: ٣/ ١٨١.

(٦٢) ابن تغرى بردي، المصدر السابق: ٦/ ٣٨٢.